الفصل الرابع

الشيوعية والدين

- الشيوعية :
  - الشيوعية كثورة
  - الشيوعية كمذهب
  - مبدأ النقيض
  - مبدأ التطور
  - مبدأ الواقع
- الدين :
  - دعوة الدين
  - سيادة الانسان
  - سيادة القيم الانسانية
  - نكسة الشيوعية
  - الدين والشيوعية

obeikandi.com

obeikandl.com

الشـــيوعية

● الشـــيوعية كثــورة :

قامت الثورة الشيوعية قبيل نهاية الحرب العالمية الاولى فى سنة ١٩١٧ لتقوض نظام المجتمع القيصرى الروسى ، وتقيم مجتمعا آخر يكون أكثــر توازنا وانسجاما ــ فى نظرها ــ من المجتمع السابق عليه ، أو تنعدم فيه عوامل الاحتكاك والاصطدام بين الطبقات والافراد . قامت لتحقق المجتمع العمالى ذا الطبقة الواحدة زاعمة أنه اذا انعدمت عوامل الاحتكاك والاصطدام فيه ، لم تكن هناك حاجة الى وجود القوة البوليسية ، وهى القوة التى يناط بها صيانة الأمن الداخلى فى المجتمع .

والثورة الشيوعية تدعى أنها لا تهدف ــ فحسب ــ الى اقامة مجتمع ذى طبقة واحدة تنعدم فيه عوامل الاحتكاك والاصطدام ، بل تهدف أيضا الى اقامة مجتمع يتمتع بخلقية عالية وقيمة رفيعة ، وهو الذى لا تدعــو الحاجة فيه الى قوة حراسة خاصة وراء أفراد المجتمع ، ولها ســلطة تعلو كيانهم الشخصى .

وهذه الخلقية الرفيعة انما تأتى عن تحول المجتمع الى طبقة واحدة . ولا ينبغى أن تكون هذه الطبقة هى الطبقة الراسمالية وحدها ، ولا الطبقة الاقطاعية وحدها ، لأن كلتيهما تعيش وتعتمد فى حياتها على استخدام راس المال أو الاقطاع ، وليس على النشاط البشرى الخاص لأفرادها . واستخدام راس المال والاقطاع يستدعى بدوره ان يسخر الطاقة البشرية التى هى فى حاجة الى أن تستمر كى تعيش ، وهى الطاقة البشرية التى تمارسهــا الطبقة العاملة . وبذلك لايقف تكوين المجتمع من احدى هاتين الطبقتين ــ الراسمالية والاقطاعية ــ عند حد واحدة منهما ، بل سيتطلب وجود طبقة

اخرى وهى الطبقة العاملة . واذن لكى يتكون المجتمع من طبقة واحدة يجب الا يكون فى وجود هذه الطبقة ما يستلزم حتما وجود طبقة اخرى غيرها . وهذا لا يتحقق الا بأن يكون المجتمع مجتمعا عماليا ، من طبقة العمال وحدهم . فهذه الطبقة لا تعتمد فى عيشتها وحياتها على شىء آخر من مال فى صورة ما ، وراء نشاطها البشرى وممارستها هذا النشاط من طريق مباشر .

ولكى يصير المجتمع مجتمعا عماليا صرفا ومكونا من طبقة واحدة هى طبقة العمال — استعجلت الثورة الشيوعية الأمر وسلكت طريق «الانقلاب» فى تحول المجتمع الروسى ، وقضت على الطبقتين الأخريين : طبقة رجال الاعمال أو اصحاب رأس المال ، وطبقة أصحاب المزارع الواسعة أو أرباب الاقطاع . كما قضت على نظام الحكم الذى قام فى روسيا على اساس وجود هاتين الطبقتين قبل هذا الانقلاب ، وهو نظام الحكم القيصرى ، وكذا على كل ما سانده من مصادر المساندة وعلى الأخص الكنيسة الأرثوذكسية أو الكنيسة الشرقية . ولأنها سلكت طريق الانقلاب فى استعجال تحول المجتمع الروسى من مجتمع ذى طبقات الى مجتمع ذى طبقة واحدة عمالية — ارتكبت العنف والاستبداد واراقة دماء عشرات الآلاف من افراد المجتمع فى سبيل هذا التحول . ولذلك كانت ثورة « حمراء » . وجعلت « الدم » شعارها لأنها لا تتخلى — كعنصر أساسى فى وجودها — عن الانقلاب وما يستلزمه من اراقة الدماء .

ناوات الاقطاع ، وناوات رأس المال ، وناوات القيصرية ، وناوات الكنيسة . فألغت الاقطاع ، وألغت رأس المال ، وحولت ملكية الأراضى الزراعية وملكية المصانع الى ما أسمته « الدولة » وبذلك أصبح المجتمع الروسى فى جانب الاقتصاد مجتمعا « شيوعيا » . والغت نظام الحكم القيصرى وجعلته حكما شعبيا أو عماليا . وبذلك أصبح هذا المجتمع فى الجانب السياسى مجتمعا ديموقراطيا أو « بروليتاريا » والغت سلطة الكنيسة فأعلنت شعار العلمانية فى طوابع الدولة ، وبذلك فصلت بين الكنيسة والدولة وجعلت سيادة الدولة فوق الكنيسة .

وأصبح المجتمع الروسى الشيوعى فى اتجاهه وفى توجيهه مجتمعا مضادا تمام المضادة للمجتمع السابق عليه . وحققت ثورة ١٩١٧ قيامه كحقيقة تاريخية . ولكن ، لكى يبقى هذا المجتمع بعد ذلك ، ولكى يبتعد ايضا عن الاضطرابات التى قد تثيرها رواسب المجتمع الماضى من عناصر النظام

القيصرى فى الحكم ، ونظام الراسمال والاقطاع فى الملك ، ونظام الكنيسة كسلطة دينية ، مما أسمتها جميعها « بالرجعية » ، عنيت الشيوعية بالفلسفة التى كانت هى نتيجة لها — وهى الفلسفة الماركسية — وبالدعوة اليها وبتحويلها الى « دين » و « وايمان » كما حولت المجتمع نفسه الى مجتمع ذى طبقة واحدة .

● **الشيوعية كمذهب :**

وهنا بشرت بالماركسية كمذهب فلسفى ، يعتمد على جملة مبادىء ، سبق أن استخدمت فى الفلسفة المثالية فى القرن الثامن عشر ، وكذا فى الفلسفة الطبيعية والوضعية فى النصف الأول من القرن التاسع عشر . هى مبادىء « النقيض » فى الفلسفة المثالية الألمانية ، و « التطور » و «الواقع» فى الفلسفة الوضعية . وكل مبدأ من هذه المبادىء الثلاثة دللت به على القيمة العليا للشيوعية من جانب ، ومن جانب آخر على خفة وزن القيم « الرجعية » فى نظام المجتمع السابق ، وعلى الأخص على خفة وزن الدين . وبذلك وقفت من الكنيسة المسيحية كسلطة موقفا ، ومن الدين على العموم موقفا آخر ، هو فى جملته موقف عدم الرضا والمكافحة .

● **مبدأ النقيض :**

ومبدأ النقيض استخدمه الفيلسوف الألمانى **« نيتشه »** من قبل فى التدليل على أصالة العقل الانسانى وأسبقيته فى الوجود ، وبالتالى على قدرته على الخلق وعلى حريته المطلقة التى لا يحدها «شاهد وحس» ولا «وحى» أو «قوة أخرى مغيبة» عن الشاهد والحس ، وعلى أنه لذلك يملى ولا يملى عليه ، وأن المجتمع الانسانى ، والقانون ، والدولة ، والخلقية ، من آثاره ، وأن حياة الناس جميعا فى روابط الأخوة الانسانية وفى ظل دولة عالمية هدف أخير لخالقيته ومجهوده .

واستخدم هذا المبدأ بعينه الفيلسوف الالمانى المثالى الآخر **« هيجل »** فى توضيح قيمة « العقل » الانسانى وقيمة « الله » ، وفى أن وضع الله فى الوجود هو وضع المطلق الذى يتجلى عنه المقيد وهو الطبيعة المشاهدة ، والذى يسعى نحوه ما خرج عن التقيد نوعا ما ، وهو « الدولة » « والقانون » « والأخلاق » وأن الله لذلك يوحى ، وأن على الانسان الطاعة لما يوحى به .

وخرج « هيجل » من استخدام مبدأ النقيض الى نتيجة هى :

ان سلطة « الوحى » فوق سلطة « العقل » ، وان الوحى والعقل معا فوق الطبيعة ، أو فوق ما يسمى بالواقع أو المحس .

وهذا المبدأ دلل به **(كارل ماركس)** فيلسوف الشيوعية — وهو فيلسوف يهودى المانى — على أن المجتمع سيتغير حتما الى مجتمع عمالى ذى طبقة واحدة ، اى الى مجتمع شيوعى . وساق التاريخ المادى فى توضيح أن هذا المبدأ ضرورى الوقوع فى المجتمع ، كما هو ضرورى الوقوع فى « التصور » و « الفكرة » . اذ باستعراض أوضاع المجتمع الانسانى اقتصاديا كان المجتمع « الملكى » اسبق أنواع المجتمعات فى ملكية المال ، فالمجتمع « الاقطاعى » . ثم تلا هذا فى الوجود « المجتمع الرأسمالى » وبتحليل المجتمع الملكى — ككائن موجود — وجد أنه يتضمن طرفين متقابلين : يتضمن الملك من جانب ، ورجال حكومته المنفذين لأوامره ورعاياه أو عبيده من جانب آخر . ثم بالصراع بين الطرفين المتقابلين تحول أحد الطرفين وهو الملك ، فى الطرف الآخر وهو رجال حكومته ورعاياه . وبهذا التحول نشأ الوضع الثانى للمجتمع وهو وضع الاقطاع . اذ أن ما كان للملك من ملك — وهو ملك الأراضى الزراعية — لأن الصناعة كانت حرفا فردية ولم تكن قد وصلت الى التطور الآلى على نحو ما عرف فيما بعد فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر فى المانيا — انتقل الى رجال حكومته . واصبح رعايا الملك السابقون وعبيده الآن زراعا ومستأجرين لهذه الأراضى .

ولكن هذا المجتمع الاقطاعى لم يبق على نحو ما وجد عليه ، ويستحيل أن يبقى على ما هو عليه تبعا لضرورة مبدأ « النقيض » ، فتحول الى المجتمع الرأسمالى . اذ بتحليل وضع الاقطاع وجد أن مجتمعه ينطوى على طرفين متقابلين : اصحاب الأراضى الزراعية من كبار الملاك والمستأجرين لهذه الأراضى . وبالصراع بين هذين الطرفين تحول أحد الطرفين وهو طرف كبار الملاك فى الطرف المقابل وهو طرف المستأجرين ، وذلك بهروب اصحاب الاقطاع بأموالهم وتوظيفهم اياها فى المصانع مع تركهم الأراضى للمستأجرين أنفسهم .

وانبثق عن مجتمع الاقطاع وضع آخر للمجتمع وهو المجتمع الرأسمالى ، اى مجتمع أصحاب رؤوس الأموال الموظفة فى الصناعات الكبيرة .

واذا كان المجتمع حتى الآن انتقل من وضع الى وضع مقابل له ، فالمجتمع الرأسمالى سينقلب ويتحول الى مجتمع آخر ، بناء أيضا على ضرورة مبدأ النقيض ، كمبدأ عام فى الوجود كله . ووضع المجتمع الذى سيتحول اليه المجتمع الرأسمالى هو المجتمع العمالى . لأن المجتمع الصناعى أو الرأسمالى ينطوى أيضا على طرفين متقابلين ، على القلة من أصحاب رؤوس الأموال وهم ملاك المصانع من جانب ، وعلى الكثرة من العمال الأجراء فى المصانع من جانب آخر . وبالصراع بين الطرفين سيصير الأمر الى العمال ، ويصبح المجتمع مجتمعا عماليا .

ومعنى أن الأمر سيصير الى العمال ـ حسب منطق استخدام «النقيض» فى دائرة المجتمع ـ أن ملكية المال الممثل الآن فى المصانع ستئول الى العمال ، وسيصبحون هم أصحاب الصناعات ! !

والفلسفة الماركسية عندما استخدمت مبدأ « النقيض » فى دائرة المجتمع لاتكتفى بالصيرورة المحتمة فى هذا المقابل كما تدعى ، بل تضيف الى ذلك : الادعاء بأن انتقال المجتمع من وضع الى وضع النقيض له يصير فى انتقاله وتحوله من مرحلة الى مرحلة بالتدريج ، حتى اذا وصل الأمر الى نقطة معينة فلابد من «انقلاب» ليتم التحول والانتقال . وذلك كالماء فى تحوله الى بخار ، فانه يسير بفعل الحرارة فى تحوله من مرحلة الى اخرى ، ثم دفعة واحدة ينتهى الماء ، ويكون الأمر كله الى بخار .

ولذلك لا ينتظر المذهب الماركسى أوضاع المجتمعات ، وبخاصة وضع المجتمع الرأسمالى ، حتى تتحول الى المجتمع العمالى من ذاتها ، بل ينادى بالانقلاب وتدخل المؤمنين بالشيوعية فى تعجيل أمر هذا الانقلاب فى المجتمع .

والسؤال الذى يعقب به اى باحث على استخدام الماركسية مبدأ النقيض فى تبرير تحول المجتمع الى مجتمع عمالى هو : لحقيقة أصبح العمال فى المجتمع الشيوعى الآن هم ملاك الصناعات والأراضى الزراعية ، كما بشرت الماركسية الجماهير بفلسفة النقيض ؟

أيقف تحول المجتمع ـ بناء على مبدأ النقيض ، وأن الشىء ، اى شىء ، لا يلبث أن يصير الى نقيضه كلما وجد على حال خاص ـ عند حد المجتمع العمالى ؟ أم أن الحتمية والضرورة التى تراها الماركسية فى مبدأ النقيض كطابع عام له تدفع الملاحظين لأحوال المجتمع الى ترقب انبثاق

مجتمع آخر عن المجتمع العمالى يكون نقيضا له ، ثم عن هذا النقيض سينبثق مجتمع آخر هو نقيض له كذلك ... وهلم جرا ؟

فاذا سلبت ملكية المصانع من العمال فى مجتمع شيوعى وبقوا اجراء او اشبه بالأجراء ، فما بشرت به الفلسفة الماركسية تحت استخدام مبدأ النقيض فى صيرورة المجتمعات يبقى فى نطاق « النظر والتصور » دون « الواقع » . وسنرى أنها تكافح « النظر » وتركز الايمان بـ « الواقع » .

واذا لم يترقب المجتمع الشيوعى — وهو المجتمع العمالى — زوال نفسه وفناءه وتحوله فى مجتمع مضاد له تماما — فانه عندئذ اما ألا يساير منطق الفلسفة التى قام عليها والتى يستخدمها فى تبرير وجوده وصيرورة وضع اى مجتمع اليه ، وهى الفلسفة الماركسية ، واما انه بعد أن صار الى الوضع الذى ارتضاه زعماء الثورة البلشفية فى سنة ١٩١٧ عاد الى « العقيدة » التى لا تعلل بالمنطق والفلسفة ، وأصبح لذلك مجتمعا ذا عقيدة لا تناقش ، وحينئذ لا يكون المجتمع الذى يضع « العلم » موضع العقيدة ، والذى يطلب الى أفراده مكافحة « الرجعية » فى صورة الايمان والاعتقاد ، أى ايمان وأى اعتقاد ، والذى يطلب اليهم « التحرر » دوما من الايمان والاعتقـــاد .

● **مبدأ التطور :**

اما مبدأ التطور فقد استعارته الماركسية من « دارون » ، واستخدمته فى التدليل على أن الحال التى يصير اليها الكائن الموجود أفضل من الحال التى كان عليها من قبل ، وأكثر قيمة وأولى بالتبعية . والمجتمع ككائن من الكائنات الموجودة سيصير فى تحوله من وضع الى وضع ، وعندئذ يكون وضعه التالى لوضع سابق عليه هو أفضل وأدخل فى معنى القيمة ، وأجدر اذن بأن يتبع . ومنطق ذلك أن المجتمع العمالى — وهو المجتمع الشيوعى — أفضل من وضع المجتمع السابق عليه وهو الرأسمالى ، وهذا أفضل من المجتمع الاقطاعى الذى تحول عنه ، والاقطاع أفضل من المجتمع الملكى الذى تقدم عليه .

ومن مبدأى « النقيض » و « التطور » برزت ظاهرة ملازمة لهما ، على أنها ظاهرة عامة فى الوجود ، وهى ظاهرة « التغير » يخضع لها كل كائن فى انتقاله من وضع الى نقيضه ، وفى تطوره من مرحلة الى مرحلة أخرى .

وبابراز هذه الظاهرة وبأنها مصاحبة لوجود كل شيء ، تحاول الماركسية أن تدعى أن ثبات « القيم » الأخلاقية فى الحياة الانسانية أمر يضاد طبيعة الأشياء وطبيعة الوجود ، وأن القيم لذلك تتغير كما يتغير كل شيء . واذن الفضائل فى سلوك الانسان تختلف من وقت لوقت . وما يعد فضيلة فى وقت لا يصح أن يبقى دوما على أنه فضيلة ، بل قد تكون الفضيلة فى ضده .

ومعنى هذا الادعاء الذى تدعيه الماركسية عن طريق ظاهرة التغير — ان الذى ورد فى رسالة الأديان أو قامت عليه الفلسفة الأخلاقية المثالية من مثل : أن « العدل » و « الحرية » الفردية والمحافظة على « حرمة » النفس والمال والعرض ، فضائل — قد يتحول الى رذائل ، وتكون الفضيلة فى ضده حسبما تأتى به عوامل التغيير والتبديل فى الحياة .

واذا كان مبدأ النقيض تقصد به الماركسية اقناع الناس بضرورة تحول المجتمعات الى المجتمع الشيوعى العمالى مهما طال الأمر ، وأن هذا المجتمع العمالى هو المصير المحتوم للانسانية — فانها تهدف من مبدأ التطور اقناعهم بأفضلية هذا المجتمع نفسه فى القيمة وبذلك يكون اندفاع الناس الى قبول هذا المجتمع — وكذا الى السعى فى تحقيق وقوعه ان لم يكن تم بالفعل فى مجتمع ما — ليس لأنه القدر المحتوم للبشرية عامة ، ولكن لأنه الأفضل الذى لا يدانيه فى الفضل مجتمع سابق عليه .

كما تستهدف بظاهرة التغير التى تصاحب المبدأين ، تسفيه رأى الدين ورأى الفلسفة الأخلاقية المثالية فى القيم والفضائل ، ورمى كليهما بالغباء وعدم الفهم لقوانين الوجود ، وبالتالى عدم مسايرة طبيعة الحياة . ورجال الدين وكذا الفلاسفة العقليون المثاليون « رجعيون » فى نظر الماركسية يقفون بالحياة عند خط معين . بينما غيرهم ينظر الى الأمام حسبما توحى قوانين الطبيعة ، ينظرون هم الى الخلف ويستمرون فى نظرتهم الى هذا الخلف غاضين البصر عن ركب الحياة وسيره قدما .

وبهذا أو ذاك تبنى الماركسية فى قيمة المجتمع الشيوعى بمقدار ماتنهدم فى القوى التى تقف فى طريق اقبال الناس على التبعية له ، وفى مقدمتها الدين والمثالية العقلية . وهى لا تبنى من جانب وتهدم فى جانب آخر بالادعاء على هذا النحو فحسب ، بل أيضا باستخدام مصطلحات تجذب الميل الى ناحية ، وتنفر من البقاء فى ناحية أخرى . فهى تستعمل كلمة « التقدمية »

فى جانب ما تدعو اليه ، وهو مصطلح جذاب . بينما تستعمل « الرجعية » فى جانب ما تحول هدمه وتقويضه ، وهو الدين والفلسفة الاخلاقية المثالية .

ولكن الماركسية فى تطبيق ظاهرة « التغير » على القيم الانسانيه تحاول الخداع فى واقع الأمر ، كما اثبت نفس الشىء تطبيقها لمبدأ « النقيض » على المجتمع : اذ وقفت بهذا المبدأ عند المجتمع الشيوعى . وبذلك أوقفت سير المبدأ وحدت من اعتباره كقانون عام للوجود له طابع الدوران والاستمرار فيما يدور فيه .

فالقيم الانسانية هى المستويات العليا فى السلوك الانسانى . هى النهايات لتطور الانسان فى انسانيته . واذا كانت هى نهايات لتطور الانسان فى انسانيته فهى لاتقبل الزيادة ، وبالتالى لاتقبل « التغير » ، وتصبح عندئذ طرفا واضحا مقابلا لما عليه غير الانسانى ، مما له طبيعة الحركة والحياة ، وهو الحيوان .

وكون القيم هى المستويات العليا فى السلوك الانسانى ، يتضح من تطور الانسان وانتقاله من مرحلة الى مرحلة حتى بلوغ المرحلة النهائية وهى مرحلة الرشد : فالانسان الطفل حيوان فى سلوكه ، يتصرف طبقا للغريزة كما يتصرف الحيوان . وقلما يتدخل الشعور الانسانى ، وهى خاصة الانسان ، فى هذا التصرف . وبالتدريج شيئا فشيئا يحل «الشعور» بجانب «الغريزة» فى حياة الانسان أثناء سير تطوره ، حتى يتحكم الشعور ، عن طريق تكون العادات الانسانية المهذبة وعن طريق الفهم السليم لطبيعة الحياة — وفى داخلها طبيعة المجتمع — فاذا تحكم الشعور الانسانى وكانت له سيادة على الغريزة أصبحت للانسان خاصة الانسانية وتميز تميزا واضحا عن الحيوان .

وأهم ظاهرة ينحدر بها السلوك الغريزى هى « الأنانية » وأهم ما يعبر عن الخاصة الانسانية هو « الجماعة » ، أو الاعتراف بالمجتمع اعترافا يبدو فى التطبيق العملى كما هو يعيش فى دخيلة النفس . والأنانية تنكر كل حق للغير فى الوجود ، بينما الجماعية تدعو لدعم حق الغير فى الوجود عن طريق التعاون فيما يحقق حياة أفضل للاثنين ، وفيما يدفع الأضرار والاعتداء عليهما .

وليست « القيم » الانسانية الا « النماذج » العملية التى يتحقق فيها

معنى « الجماعية » كما توضح هى مظاهر التعاون المختلفة نحو حياة انسانية افضل .

واذا كانت القيم هى النماذج فى السلوك البشرى ، واذا كانت هى التعبيرات عن الخاصة الانسانية التى يصل اليها بالتدريج ، واذا كانت هى التى تنطق بسيادة الشعور الانسانى والرشد الانسانى على الغريزة الحيوانية فى الانسان — فانها لا تتغير اطلاقا بعد ذلك . لأن الانسان اما ان يصير الى انسانية أو يبقى فى الحيوانية . والقيم — كما ذكرنا — هى التى توضح صيرورته الى الانسانية .

الانسان نفسه يتطور ويتغير نحو الانسانية . ولكن القيم ، وهى التعبيرات عن الانسانية ، باقية خالدة .

• مبدأ الواقع :

ومبدأ الواقع الذى عرف لـ « **اوجست كومت** » و« **فيرباخ** » و« **انشتين تال** » **اكدت الماركسية قيمته لتدفع به أولا وبالذات القوى المعادية — وهى القوى (الرجعية) — وبالأخص الدين والفلسفة الأخلاقية المثالية .**

مبدأ الواقع ينكر أن يكون لما وراء الطبيعة ، وهو الوحى ، وان يكون للعقل فى الطبيعة نفسها ، اعتبار فى المعرفة ووزن فى الحكم على الوجود وفى تخطيط سلوك الانسان وتحديد غاية المجتمع البشرى . اذ أن ما بقى به وحى السماء وتأتى به رسالة الاديان — فى نظره — خرافة ، وما يدركه العقل الانسانى بادىء ذى بدء من نفسه ويحاول أن يصور به الطبيعة التى يعيش فيها الانسان وهم وخداع .

ولذا فان (الواقع) — وليس غيره من دين أو عقل — **هو الذى** يجب أن يملى على الانسان ويلقنه ، ويجب على الانسان أن يتعلم منه أولا ويعطيه بعد ذلك . والواقع الذى نعيش فيه هو الطبيعة التى نحسها وندركها بأبصارنا واسماعنا ونلمسها بأيدينا ، ونضرب فيها بأقدامنا . فلندع هذه الطبيعة المحسوسة تتكلم ، ولنسر فيها على هدى ما تنطق به لا على هدى الله ولا على نور العقل . فليس لله وجود اطلاقا ، وليس للعقل نور الا ما يشع عليه من منطق الطبيعة المشاهدة .

ليس الله موجودا لانه ليس هناك وجود وراء الوجود المادى . ولو كان له وجود مادى لأدركناه بالحس ، ونحن لا نـــدركه بالحس ، فليس موجودا ، وليس للعقل وجود مستقل عن الجسم المـــادى . ووجوده اذن مرتبط بالوجود المادى وتابع له ، فليس له استقلال حتى يكون له نـــور وإشعاع منفصل عن اشعاع الطبيعة المادية ، وليس له منطق ينفرد بـــه عن منطقها ، بل الطبيعة تنطقه فينطق ، وتحمله على التفكير فيفكر ، وتحدد له اتجاه التفكير فيتجه فيما يحدد له من اتجاه .

واذا كانت الطبيعة المادية هى الوجود ، واذا كان منطقها هو المعبر وحده ـــ فالمعرفة التى تحصـــل عن طريق منطق الطبيعة هى المعرفة الســـليمة اليقينية . والعلم بعـــد ذلك ليس هو علم ما وراء الطبيعة ، وليس هو علم الوحى الدينى ، وليس هو تصور العقل الانسانى من نفسه . هو علم الواقع والطبيعة المشاهدة . والأجدر اذن بالعبادة ليس الله كما يدعو رجال الدين ، وليس الانسان كقوة مدركة ، كما يدعو رجال الفلسفة العقلية ، وانما الأجدر بالعبادة هو « العلم » ومحراب العـــابد ليس الكنيسة ، وليس البحث « النظرى » بل هو « المعمل » الذى نجرى به التجارب على خصائص هذه الطبيعة المادية .

والحضارة الانسانية لا يكونها تراث الماضى الروحى او العقلى ، بل يكونها فحسب ما ينتج عن هذه التجارب الطبيعية . يكونها « العلم » وما له من نتائج مادية فى حياة الانسان . و « الآلة » ابرز هذه النتائج ، والصناعة فى مختلف جوانبها من افضال الآلة على الانسان . والحضارة الصناعية لذلك هى الحضارة الحقة التى يجب على الانسان أن يستمر على البناء فيها لتحقيق حياة افضل .

ولكى تضفى الماركسية على « العلم » هالة من القداسة ، وتجعل له كيـــان المعبود الذى يجب على العابدين أن يتقدموا فى عبادتهم ايـــاه بقربان ـــ والقربان هنا الاســـهام فى نمو الحضـــارة الصناعية ـــ دعت الشيوعية الى « الايمان » من جديد ، ودعتهم **الى « الاعتقاد » بتثليث آخر : العلم ، والمجتمع ، والدولة** واصبحت الفلسفة الماركسية **دينا وعقيدة .**

وهنا يلاحظ انها بتأكيدها مبدأ الواقع لتقوض الدين والايمان ، انتهت من جديد ، عن طريق الواقع نفسه ، الى الدين والايمان . ولكن ليس الى

دين الله ، بل الى دين الطبيعة ، وليس الى الايمان بالله ، بل الى الايمان بمصنوع الانسان .

وتقديس العلم وتأليهه يجعل له سيادة على الانسان ، وليس فى خدمته . وتقديس المجتمع وتأليهه يدعو افراده الى التضحية والافناء فيه دون انتظار جزاء منه . وتقديس الدولة وتأليهها يجعلها تطاع دون أن تناقش .

ليس هناك اذن الا الاله الجديد . والاله الجديد هو ذلك « الثالوث » الذى ادعت الماركسية انه من واقع الطبيعة التى ترى وتشاهد مع انه نفسه لا يرى ويشاهد . فنحن لا نرى العلم ، بل نتصوره . ولا نرى المجتمع وانما نتصوره ايضا على انه جملة من الروابط المشتركة بين الأفراد . ولا نرى الدولة وانما نحس آثارها فحسب فى «التنفيذ» . نحن لا نرى الا تجارب ، والتجارب ليست هى العلم ، بل هى مقدماته . ونحن لانرى الا افرادا يحيون حياة آمنوا بها ، ويعيشون عيشة ارتضوها لأنفسهم أو اكرهوا عليها والأفراد ليسوا هم المجتمع ، وانما هم لبنات فيه . واللبنات فى البناء ليست هى البناء نفسه . ونحن لا نرى الا افرادا مشرعين مقننين ، وافرادا آخرين حارسين ومنفذين . والمشرعون والمنفذون من الأفراد فى خدمة الدولة وليسوا هم الدولة نفسها .

والاله الجديد فى الدين الجديد لا يوجد اذن فى الواقع المشاهد . وقد انكرت الماركسية الله من قبل ، لأنه لا يوجد فى الواقع المشاهد . وبذلك تنكر بناء على تبرير خاص ، ثم تعود فتؤمن بما يقوم على ذلك التبرير الخاص ذاته .

وفى الدين الجديد ليست هناك خشية من اله الا اله العلم والمجتمع والدولة . والعلم والمجتمع والدولة من صنع الانسان ، بدليل أن الانسان البدائى يوجد من غير علم وغير دولة . فوجود هذا الثالوث وجود طارىء على وجود الانسان . واذن هو من خلق الانسان وليس من خلق نفسه . ويوم يبتعد عنه الانسان ، يوم يتوقف وجوده ، وتتوقف حياته ، ومن ثم يعتريه الاضمحلال فالفناء . فهو اله عاجز عن الخلق وان بدا فى صورة عملاق خالق . وهو اله لا يستغنى عن غيره ، وان بدا انه يعطى الحياة لغيره . وهو بعجزه وباحتياجه فى واقع أمره لا يستطيع أن يوجه الانسانية الى الخير . هو لا يفتقد فحسب تمييز الخير من الشر ، بل مع ذلك يفتقد القوة الذاتية التى توجه اما الى الخير واما الى الشر .

العلم ـــ وهو ركن فى الثالوث المؤله ـــ يدفعه الانسان نحو الخير ونحو الشر ، وهو لا يدفع نفسه . وكذلك الشأن فى المجتمع والدولة يدفعهما الانسان ـــ وهو القائد والموجه ـــ نحو الخير ونحو الشر ، وهما لا يندفعان من ذاتهما نحو هذا أو ذاك .

واذن فالانسان الذى كان من واجبه فى هذا الوضع أن يكون معبودا أصبح عابدا . والماركسية بذلك لا تدعو الى « النكسة » فى الانسانية واسترقاق الانسان واستذلاله لـــ « وثن » لا يملك لنفسه الحياة والاستمرار فيها مستقلا عن غيره ، فضلا عن أن يوجه غيره ويقوده . وانما فى الوقت الذى تفرغ فيه الماركسية قلب الشيوعى من الايمان بالله الخالق فتنزع منه الخشية ، تعوضه بدين وبايمان يدعوه الى الخير والشر سواء . لأن اله هذا الدين وهذا الايمان وهو « العلم » ـــ كما حددته ـــ لا يتصل بطبيعته ومن ذاته بخير ولا شر . طبيعته طبيعة محايدة .

والدين الذى بين الخير والشر ، لا تأمن الانسانية من سيادة الشر بين اتباعه . والاله المحايد بين الخير والشر ، قد يتقدم اليه عباده بالشر على أنه قربان ، أكثر مما يتقدمون اليه بالخير على أنه قربان ايضا .

ولكنها الماركسية تحرض الناس على « الانقلاب » باسم مبدأ النقيض ، وتخفى وجهها من توقع انقلاب فى المجتمع الشيوعى اذا ما صار اليه الوضع يـــوما ما .

وتحرض الناس باسم التطور على التنكر للقيم الانسانية والمستوى الانسانى الفاضل وتبشر فى الوقت نفسه ـــ عن طريق فلسفتها ـــ بحياة أفضل ومجتمع أفضل .

وتحرض الناس على انكار الله ، وانكار الدين ، وتضعهم أمام دين وأمام اله هو من صنع الانسان وليس خالقا له ، هو نفسه « جاهل » بمصير الانسانية رغم أنه « العلم » .

***

الـــدين

● **دعوة الدين :**

أمـــا الدين ـــ فى مقابل الماركســـية ـــ فانه يدعو الى الايمان بالله الخالق ، المستغنى عن غيره ، والمستمر فى الدوام ، والباقى الذى لا يتحول الى حال آخر أو وضع آخر ، والذى يعلو أفراد الانسان جميعها ، هو للناس كلهم : « **قل يا أيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا** » (١) . هو الذى حددت رسالته الخير والشر : « **ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم** » (٢) . ودعا رسوله الى الخير وحده : « **وأن هذا صراطى مســـتقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن ســـبيله** » (٣) . والخير الذى يدعو اليه الدين هو التعاون فى سبيل حياة أفضل « **وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الاثم والعدوان** » (٤) . والأخوة الانسانية : « **يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شـــعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم** » (٥) . هو عدم الغواية وعدم النزوع الى الشر وسلوك طريقه : « **ولا تتبعوا خطوات الشيطان ، انه لكم عدو مبين** » (٦) .

الله رب الدين اذن يعلم الخير والشر ، كما يعلم الجهر وما يخفى ، ويريد الخير وحده ، لأن فى الخير سلامة البشرية وتعاونها واخاءها . وفى التعاون والاخاء ازدهار الحياة الانسانية ونماؤها .

● **سيادة الانسان :**

والله رب الدين يعلم الأرض والطبيعة كلها . ويقدر الطبيعة البشرية خاصة بين كائناتها ، على أنها لا تخضع الا لله وحده ، ولا تعبد الا اياه . وهى اذ تعبده وحده تسلم الى الخير وتفعله ، وتدرك الشر وتتجنبه . تسلم الى الانسجام والســـلم وتسعى نحوهما . وتدرك الخصومة والاضطراب

---

(١) الأعراف : ١٥٨ . (٢) الاسراء : ٩ (٣) الأنعام : ١٥٣
(٤) المائدة : ٢ (٥) الحجرات : ١٣
(٦) البقرة : ١٦٨ ، ٢٠٨ ، الأنعام : ١٤٢ .

وتحاول تجنبهما . وكما يقدر الطبيعة البشرية على انها تعبد الله وحده ، يقدرها ايضا على انها يجب ان تسـود على ما عداها من كائنات الطبيعة : « **ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البـر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا** » (١) « **وهو الذى سـخر البحر لتاكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون** » (٢) . « **هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه** » (٣) . « **وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ، وسخر لكم الليل والنهار . وآتاكم من كل ما سألتموه .** » (٤)

وهنا فى نظر رسالة الدين ، يسعى الانسان الى « العلم » ، « **قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون** » (٥) ليسـود به الانسـان على الطبيعة ولكن لا ليعبد العلم ويؤلهه . ويسعى لبناء الحضـارة المادية والصناعية . « **وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس** » (٦) .. ولكن ليضيفها الى القيم الروحية والانسانية .

وهنا فى نظر رسالة الدين يسعى الانسـان الى تكوين المجتمع . « **والمؤمنون والمؤمنات بعضـهم أولياء بعض** » (٧) . ليرعى أفراده ولكن لا ليفنى الأفراد فيه . ويسعى الى تأسيس الدولة : « **أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم** » (٨) . لتقيم العـدل والتوازن ، وتحفظ على رعاياها حقهم فى الحياة ، وتصون حرماتهم الشخصية من النفس والمال والعرض ، ولكن لا لتطاع دون مناقشة ، ويسـلم لها الزمام ولو كانت جائرة أو سالبة للحرمات الشخصية من نفس ومال وعرض .

الدين لا يطلب من الانسان أن يعكس آية الحياة والوجود ، فيعبد من كان خلقا له من : علم ، ومجتمع ، ودولة . يريد له أن يظل طبيعيا يتصرف وفق قوانين الطبيعة نفسها ، طالما هو مانح الوجود والنمو والتطور لغيره — فأجدر بهذا الغير أن يكون فى خدمته وتبعيته .

---

(١) الاسراء : ٧٠ .
(٢) النحل : ١٤ .
(٣) الملك : ١٥ .
(٤) ابراهيم : ٣٣ ، ٣٤ .
(٥) الزمر : ٩
(٦) الحديد : ٢٥
(٧) التوبة : ٧١
(٨) النساء : ٥٩

● سيادة القيم الانسانية :

وسيادة الانسان التى يدعو اليها الدين هى فى واقع الأمر ليست فى سيادة هيكله المادى ونموه الحيوانى ، بل فى سيادة القيم الانسانية من : العدل ، والحرية ، والاخاء ، والمساواة ، وصيانة الحرمات الشخصية .. اذ لا يلحظ الدين فى الانسان فقط انسانيته وميزته البشرية . وهذه لا تتمثل الا فى القيم الانسانية وحدها .

واذن الدين يطلب من سيادة الانسان ، وسيادة القيم الانسانية ، استقرار السلم بين الناس ، وتحقق التوازن والعدالة بين الأفراد واشاعة روح الاخوة والتعاون .

ويجب أن يكون ما يأتى به الانسان بعد ذلك مما يحصله من علم ، وما يقيمه من مجتمع وما يؤسسه من دولة فى خدمة القيم الانسانية وسيادتها . فاذا عكس الوضع واصبحت القيم الانسانية ، واصبحت البشرية كلها فى خدمة العلم والمجتمع والدولة ، يومئذ لا يتحقق سلم ، ولا عدالة ، ولا أخوة ، ولا تعاون . يومئذ يسود الطاغوت وتسود النزوات وبالتالى يسود الاضطراب والقلق ، وهنا لاتخفق الانسانية فى رسالتها ، وانما الطبيعة نفسها تخفق فى التعبير عن قيمتها الحقيقية .

اذ قيمة الطبيعة فى أن يتجلى خضوعها للانسان ،

وقيمة الانسان فى أن يكون ذا مستوى انسانى فاضل ،

وقيمة الكون كله فى أن يدل على خالقه ، بما فيه من دقة وانسجام ، تحكمها قوانين لا شذوذ فيها ، وانما الشذوذ فى ادراك الانسان لها .

وهذا كله ما تسعى اليه رسالة الدين .

● نكسة الشيوعية :

ان الشيوعية هى تحول عبادة الانسان الى « وثن » يسخر ولايستطيع أن يسخر ويوجه غيره . وتحول طبيعة الانسان من طبيعة سائدة الى طبيعة مسودة ، ومن طبيعة حرة كريمة ذات مشيئة الى طبيعة يتحكم فيها من لا مشيئة ولا ارادة له ، لا استقلالا ولا تبعا ، وتسوى بين الخير

والشر فى التوجيه ، وتحول القيم الانسانية الى قوارب فارغة ، تملؤها بما ترغب ، لا بما يجب لصالح الانسانية وحدها .

والهها — وهو العلم — يتغير اليوم عنه بالأمس ، وسيغيره الغد القريب ثم الغد البعيد بعده — وقداسته بالأمس اذن لم تكن الا تخيلا ووهما . وعبادته عندئذ كانت خرافة ، لأنه تغير اليوم عنه بالأمس . وقداسته اليوم ستصبح فى الغد أيضا تخيلا ووهما ، وستصبح أيضا عبادته خرافة ، لأنه سيتغير فى الغد عنه اليوم . وهكذا ..

● **الدين والشيوعية :**

ان الفرق بينهما هو الفرق بين دعوة طبيعية ، ودعوة هى نشاز عن الطبيعة . الدين يساير طبيعة الانسان وطبيعة الكون كله ، فحرص على الالفة والأخوة فى حياة الانسان ، على نمط ما يشاهد الانسجام فى الطبائع الكونية الأخرى . أما الشيوعية فهى دعوة الى الانقلاب والاضطراب . سلمها فى الحرب ، وحريتها فى الرق ، ومساواتها فى السلب ، وامنها فى الاثارة والقلق .

انها قامت على مبدأ « النقيض » ، فالتضاد فى حياة مجتمعها يلعب الدور الاول ، وانسانها مردد بين طرفى النقيض ، هو بين الحياة والموت ، وبين القيد والانطلاق ، قيد فى الانسانية ، وانطلاق فى الحيوانية ، وبين الانسان واللاانسان .

ان الدين يدعو الى الوئام بين الروح والجسم لدى الأفراد . والشيوعية تحكم الجسم فى الروح ، وتفرض على العقل سيادة المعدة . انها أجدر بحياة الحيوان وأبعد عما يليق بكرامة الانسان .

***